الشعر العربي بين الحاسة الدينية والوجدان

بقلم فتوحي احمد

من الحقائق التي يسلم بها معظم الباحثين في الادب الجاهلي أن الشعر العربي قد أتيح له من عوامل النمو والاكتمال في الفترة السابقة على ظهور الاسلام ما استطاع به ان يكون قيثارة تنبض كل أوتارها بمشاعر الجاهليين وواقع حياتهم .

ثم انبعثت الدعوة المسلمة في أرجاء الجزيرة العربية لتغير قيم الحياة في قلوب أهلها وعقولهم ، وكان من بين ما أوضحته علاقة الدعوة الجديدة بالعمل الشعري وتكفلت بتحديد هذه العلاقة آيات كريمة وردت في سورة سميت باسم من وجهت اليهم وأعني بهذا قوله تعالى في سورة الشعراء « والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .

وايا كانت تفسيرات المفسرين لهذه الآيات فقد ترسب في الاذهان أن الدين الجديد لا يرحب كل الترحيب بأوهام الشعراء وانطلاقهم في حياة يراد لها أن تجري على نسق من النظام والاطراد ، وفي مجتمع ناشيء قد يكون من المجازفة أن يترك فيه الامر لشعراء كل بضاعتهم القول في عهد يحتاج فيه الاسلام الى كل سواعد أبنائه وعقولهم . وقد تآزرت بضعة شواهد على تثبيت هذه الفكرة: منها: ان العون المادي الذي كان يقدم للشعراء من سادة الجزيرة وأثريائها قد ضاق بعد أن أصبح الناس لا يؤمنون بجبروت سوى جبروت الله ولا يخشعون لكلمة سوى كلمة الحق ولا يعجبون بانسان الا من كمل دينه وخلقه ، وهؤلاء في غالب الاحيان كانوا ممن لم يبسط لهم في الرزق ، كما انهم من ناحية أخرى لم يكن ليعنيهم في قليل أو كثير ما يقول الشعراء عنهم ، فحسبهم أن يرضوا نوازع الدين في وجدانهم ، ولا عليهم ألا يستجلبوا رضا الشعراء !

وتوقدت بواعث التذمر ــ ازاء الموقف الصارم الذي وقفه الحكام المسلمون من الشعراء ــ حتى لنرى شاعرا كجرير يخرج من لدن الخليفة عمر بن عبد العزيز محزوما من عطائه فيجد ببابه أحد القراء فيرتجل قوله :

يا أيها القارىء المرخي عمامته
هذا زمانك .. اني قد مضى زمني

ولقد تكون اشارة « جرير » منصرفة الى عهد من سبق « عمر » من أمراء بني أمية ولكن فكرة البيت على أية حال تمثل الشعور بالضيق الذي كان يحسه كثير من الشعراء ازاء عهد لم يعد فيه مجال للارتزاق الفني !

والسؤال الان : هل كانت بواعث هذه الازمة حقيقية؟ ثم : هل الدين ــ كمجموعة من الحقائق ومظاهر السلوك الاجتماعي ــ يقف في مواجهة العمل الشعري ولا يلتقي به؟ ان واقع التاريخ في الادب العربي يشهد بأن هناك من الشعراء من كانوا ألسنة للدعوة الاسلامية الناشئة، وقد عبر هؤلاء عن مؤازرتهم لها في شعر نرى في كثير منه نبض العاطفة وتوقد الايمان (١) ، كما أن في تاريخ التصوف الاسلامي شخصيات استطاعت ان تترجم عن ادق الاحساسات الدينية في أسلوب متوهج بحرارة العاطفة ممزوج بخمرة الاتصال الالهي (٢) !

والحق أن موقف الدعوة الاسلامية في بدايتها أملته ظروف كانت : اما من صميم ما جاءت لارسائه من قيم، واما انها ظروف موقوتة ، فمن الوجهة الاولى : مجد الاسلام ما يمكن ان يسمى «بالانسجام» بين داخل المرء وخارجه : فلا يعبر الا عما يعتقده ، ولا يقول الا ما يقتنع به على حين كانت مواقف الشعراء من ممدوحيهم تتنافى تماما مع تطبيق هذا المبدأ ، اذ كان الشاعر مستعدا لان يرفع ممدوحه الى السماء أو أن يهبط به الى القاع لقاء دراهم معدودات : الامر الذي لم يكن يقره دين يعتبر الصدق الفني والواقعي أساسا في بنائه الخلقي والنفسي.

ولقد عبر عن هذا الموقف بصراحة لسان الدعوة الشاعر : حسان بن ثابت حينما قال :

وان أشعر بيت أنت قائله
بيت يقال اذا أنشدته : صدقا

وأكده عمر رضى الله عنه الذي كان يعتبر زهيرا أشعر الشعراء لانه كان لا يمدح الرجل الا بما فيه !!

نضيف الى هذا أن ظروف الدعوة الجديدة كانت تقتضي منها تجنيد كافة الطاقات البشرية من أجل تثبيت الدعائم الدينية والاجتماعية ، فلم يكن مستساغا أن تترك هذه الابواق التي يقبض عليها الشعراء لترسل بين الحين والاخر ما يمكن ان يكون فيه تفرقة بين القبائل التي ألف بينها الاسلام ، أو ما يكون شفاء لوتيرة شخصية أو طلبا لمكافأة مادية أو غاية نفعية لا يقرها الاسلام !

واذا كانت هذه هي البواعث التي أدت بالدعوة الى هذا الموقف من الشعر والشعراء ، فما هو التقويم الادبي الحديث لعلاقة الحاسة الدينية بالشعر ؟ ونعيد مرة اخرى السؤال : هل الدين يقف في مواجهة العمل الشعري ولا يلتقي به ؟

اذا اعتبرنا أن الدين مجموعة من الحقائق والمعتقدات من جهة ، ثم هو من جهة أخرى سلوك اجتماعي.. وجدنا

---

(١) راجع في ديوان حسان بن ثابت كثيرا من هذه النماذج.

(٢) يشهد بهذا ما روي من شعر صوفي منسوب الى ابن الفارض ورابعة العدوية وغيرهما ..

أننا في النهاية أمام جزء من مشكلة هامة في النقد الادبي الحديث وهي :

هل وظيفة الشاعر أن يمجد الواجب من حيث هو دين وخلق أم أن رسالته كشاعر تنحصر في استيحاء وجدانه وان خرج على مواضعات العرف وقواعد الدين ؟ هل وظيفة الشاعر جمالية أم انها اجتماعية ؟ (١)

يقرر الفيلسوف الالماني «عمانويل كانت» ـ ولنظراته الفلسفية الجمالية تأثير كبير في النقد الحديث ـ أن الحكم الجمالي غير الحكم العقلي والخلقي ، لان الحكم الجمالي صادر عن الذوق بينما الحكم الخلقي مرده الى الواجب .. ونتيجة لهذا فان الجمال المحض عنده ما كان مجردا عن أية غاية اجتماعية أو خلقية أو دينية ، وقد يختلط الجمال الفني بكل هذه الغايات ولكنه لا يكون جمالا محضا.

أحد تلامذته ـ بودلير ـ أكثر تسامحا في فهم هذه العلاقة بين الدين والخلق والعرف من ناحية والشعر من ناحية اخرى ـ فالشاعر في نظره يتحدث عن الفضيلة من حيث هي جمال كما يتحدث عن الشر من حيث هو نقص ينفر المرء منه .

وهنا تتضح نظرة من أحدث النظرات النقدية الحديثة في تقرير تلك العلاقة التي المحنا اليها ، فللشاعر أن يتناول حقائق الدين والعرف والاخلاق من حيث هي غايات جمالية لا من حيث انها تنفع المجتمع أو تتفق مع الدين .. له أن يتناولها من حيث أنها جميلة ينجذب اليها في اقتناع وجداني وفني.

وعلى سبيل المثال ، فللشاعر أن يمجد خصالا كالامانة والصدق والحلم .. الخ.. واشخاصا نبلاء كالانبياء والمصلحين ، ولكنه يتناول كل ذلك من زاوية جمالية بحتة .

قد يقال : وما المصدر الحقيقي لهذا الجمال ؟ أعني ما الذي يجعل خلالا كالامانة والصدق والحلم جميلة في نظر الشاعر ؟ وما الذي يضفي على أشخاص المصلحين والانبياء سمات الاعجاب التي تنفخ في روح الفن عند الشاعر ؟

ان المصدر الحقيقي لهذا الجمال يكمن فيما نتج عن هذه الخصال من نتائج طيبة وكدت من أركان المجتمع وثبتت من بنيانه .. ثم هو يكمن فيما أسداه هؤلاء الانبياء والمصلحون الى الانسانية من أياد بيضاء استطاعت بها ان تؤكد ذاتها وعقائدها ، أي أن المصدر اللاشعوري لهذا الجمال يعود في النهاية الى منبع اجتماعي أو ديني.. ولكن هذا المصدر بالرغم من حساسيته وقوته ـ يظل لا شعوريا بحيث يكون كل جهد الشاعر منصرفا الى استيحاء وجدانه وما انطبع عليه من مظاهر الجمال ، وليس عليه بعد ذلك أن يكون المصدر الحقيقي واللاشعوري لهذا الجمال دينيا أو اجتماعيا ، فمنذا الذي ينكر أن الشاعر نتيجة لمجموعة من الاحداث والمشاهد والمعتقدات أثرت فيه وطبعت ذاته بطابع معين تتجلى فيه بيئته وعصره بكل ما يزخر به من عوالم وأفكار .

دار العلوم ـ القاهرة

فتوح أحمد

(١) قدامة بن جعفر يعتقد بوجوب عزل الشعر عن الخلق والدين كما يؤمن بهذا كذلك الناقد العربي عبد العزيز الجرجاني.

قصيدتان

١ ـ اغنية لنفسي !

سكون المدينه
يسربل روحي الحزينه
وثلج الشتاء
نهر حليب
تجمد عبر المساء الغريب
برودته في دمائي
ذكرى قديمه
ليال عقيمه
تمر بيأسي
رؤى مطفآت
وفي صمت نفسي
منى ميتات
ارقرقها في الاسى كلمات
عن الموت عن غربتي في الحياة
عزاء لنفسي عبر المساء
وادفنها في انتصار البقاء .

٢ ـ واغنية لصديق قديم

لانا افترقنا
مساء . وكان المطر
يذرذر عبر رصيف القطار
ولم تبق الا ثواني
ويمضي النهار
وتمضي ، وابقى حليف الضجر
وحيدا أصيخ لصوت المطر
حزين الصدى في اخضرار الشجر .
صديقي ، لا شيء يبقى صديقي
حتى المدينة .
اراها تغيب بصمت عميق
وراء الضباب اراها طيوفا حزينه
وابصر ايامنا
عجائز يحلمن عبر جنينه
وابقى اعد انا والضجر
صدى عجلات القطار
تك . تك .
وصوت المطر .

جامعة كمبرج ـ انكلترا

احمد امين